٢ - بين الادب وعلم النفس *

استعراض سيكولوجى لاحدى روايات شكسبير

شاعر الانجليز العظيم

بقلم المربية الكبيرة السيدة نظلة الحكيم سعيد

الحب والكراهية

الشخص الذى تتجه نحوه العاطفة له قيمتـه وأثره فيما يحدثه من السرور أو الألم فى النفس ، فإن كان ساراً أحدث ارتياحاً وشعوراً بالرضاء التام ، وغير هذا مما يتمثل فى عاطفة الحب ؛ وإن كان الأثر مؤلماً أحدث اضطراباً وقلقاً عند صاحب العاطفة ، وكانت العاطفة كراهية ؛ وهكذا كل انفعال يتأثر الشخص، يتصل ـ حتماً ـ بإحدى العاطفتين الرئيسيتين اللتين تتحكمان فى نفسية الإنسان ؛ ويكون الانفعال قوياً أو ضعيفاً بقدر ما بين المحب والحبيب ، أو الكاره والمكروه من علاقة، كما يترتب على درجة العاطفة ذاتها [انظر الخريطة على ص ٩٣٩].

وكذلك نقول ـ على وجه العموم ـ : إن الانفعالات التى تتجمع فى النفس وتكون عاطفة الحب من أية درجة ، لا تظهر دفعة واحدة، بل يكون ظهورها بالتدريج، اللهم إلا فى بعض حالات الحب من أول نظرة ؛ أو الحب الناشىء عن عبادة الأبطال والزعماء .

أما عاطفة الكراهية فعلى نقيض هذا ، إذ تظهر انفعالاتها فجأة من غير سابق تمهيد ، وتصل إلى حدها الأقصى فى أسرع وقت ، خصوصاً فى الأمور الماسة بالشرف والدين ، وعلى أخص ما يكون فى المسائل التى فيها علاقة جنسية ـ كعلاقة الزوجية ـ ؛ فالكراهية أسرع فى تقدم خطواتها ، وأقوى فى بطشها ، لتغلب عنصر الغضب فيها ؛ والغضب هو القوة التى تدفع الانسان إلى التورط فى أشد ضروب القسوة مما تستنكره نفس الشخص فى حال الهدوء والسكينة . ويزداد ثر الغضب سوءاً إن كان منصباً على غير ذى قرابة ورحم .

وتصدق هذه النظرية من سرعة ظهور عاطفة الكراهية فى هذه الرواية ، فإن (ليتيس) تأثر بالغيرة ، ووصلت كراهيته وغضبه إلى حدها الأقصى فى مدة يومين، حتى لقد صمم نهائياً على القضاء على زوجه (هرميون) (١) ومنافسه (بولكسين) ، وكل من أظهر

---

* نشرنا القسم الاول من هذا الموضوع فى الجزء الماضى ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٢ م.

(١) موضوع العاطفة .

ملاحظة : موضوع العاطفة هو الشخص الذى تتجه نحوه العاطفة من أى نوع .

شفقته بهما او مواساتهما ؛ وبعبارة اخرى نقول : إن عاطفة الكراهية قد تطورت فجأة في ثلاث مراحل :

١ — بدأت بالغيرة والشك في إخلاص زوجه وصديقه له .

٢ — ثم شعوره باعتبار ذاته منفصلة عن ذات زوجه ، وقد كانا وحدة كاملة ، وكذلك الحال مع صديقه ، فقد شعر بانفصام ما بينهما من عرى الصداقة .

٣ — وفي المرحلة الثالثة انتهى بطلب الثأر للنفس عن طريق القضاء عليهما .

وهكذا يرتبط الغضب بعاطفة التحيز للذات ، ويتمثل في جريمة زوجه الموهومة مساساً بكرامته الشخصية ، وكرامة أمته ، وتحقير مركزه الأدبي ؛ وهذه الكرامة المثلومة تثير حميته لأخذ الثأر .

ونحن نجد مظاهر الغيرة جلية واضحة في ملاحظات وكلام (ليتنيس) لمجرد رؤية زوجه مع صديقه ، وتعنيفه بعبارات صبيانية غير لائقة بعقلية ملك : « Too Hot Too Hot » ، ثم هو يجتنب مجلسهما بعد أن كان يجد فيه لذة ومتعة ، ويجاهد مبدئياً في كتم شعوره وكظم غيظه ، لأنه لا يزال يشعر في نفسه بشيء من الاحترام لشعور زوجه ، ويصور له عقله تهماً خطيرة ، ولكنه لا يجرؤ على الجهر بها لزوجه ؛ ويذهب في إساءة تفسير ما يصدر عنهما من أعمال عادية بريئة كل مذهب ، فإذا رآهما يسيران معاً في حديقة القصر ، فسر هذا بأنهما يتآمران على خيانته ، ويمتلىء رأسه بهذه الوساوس حتى لا يقوى على احتمالها ؛ فينفضي إلى (كاميليو) صفيه وكاتم أسراره ، بأمل متاعبه ؛ ولكن (كاميليو) يعارضه الرأى ، فيوسوس إليه الشيطان بأن صفيه هذا من صنائعهما ؛ ولم لا ؟ ألا يدافع عنهما ؟ ألا يحاول جهده أن يبرئهما ؟ وهكذا يظل المسكين يتخبط في تصورات شيطانية ، ويتوسم الشك في كل من يحيط به من أتباع وجنود .

(هرميون) زوجى و (بولكسين) صديق ! يخوناني في أعز شيء لدى ! في شرفي ، وفي كرامتي ، وجنودي وأتباعي عليهم يتسترون ، هذا والله فوق طاقة البشر !

وهكذا تصبح الصداقة والأعمال البريئة العادية أدلة في نظره على الجريمة ؛ ولكنه يثوب إلى رشده — نوعاً ما — فيستعرض حوادث الموضوع وشواهده حتى يعدل في الحكم ، هنا يذكر أول حادثة : لماذا رفض (بولكسين) رجائي في أن يطيل مكثه عندى ، ويجيب رجاء (هرميون) من أول كلمة ؟ هذه نقطة وجيهة لها خطرها (وينسى المسكين أنه ألح عليها في هذا الرجاء ، ولا يخطر في ذهنه عندئذ أن (هرميون) إنما تحسن معاملة صديقه من أجله) ؛

ويسترسل فى تأملاته قائلا : كلا ! الآن أعرف أن حبهـا تحول عنى إلى غيرى ، وليست هى زوجى ، وليست الآن جزءاً منى ، يا لله ! تخون عهدى ثم تتآمر على .

* * *

كأنى بشكسبير فى هذا الموقف لم يشك فى أن المرأة ضحية الخيانة ، وأن الإساءة توجه إليها حتى على ما يبدو منها من صالح الأعمال .

ويتجسم الأمر فى نظر (ليئتيس)،فتصبح كل نظرة وكل إشارة يتبادلانها (أى هرميون وبولكسين) وقوداً يزيد نار غضبه اشتعالا ، ويرى نفسه حاملا بالعار الأبدى يلصق باسمه وبيته الملوكى؛وكذلك ينتقل الشك إلى أولئك الذين أنجبهم من قبل،فيسائل نفسه:ولمَ لا أشك؟ ألم تخنى الآن ، وقد كنت أحسبها مثال الطهر والعفاف ؟ ألا يمكن أن تكون قد خانتنى من قبل مع أحد أصدقائى أو أتباعى ؟ بلى ! لقد خانتنى بالتحقيق ، وليس هؤلاء الأولاد بأولادى؛وهكذا تصور له نفسه المريضة الخيال حقيقة؛واللغة ما أقساها ! إنها ملأى بالأمثال والحكم والأقوال المأثورة ،كلها تشير إلى ضعف المرأة وفساد سريرتها ؛ وهـذه الحكم والأمثلة تترى فى ذهنه الآن : الواحدة بعد الأخرى ، ويراها تنطبق على حال (هرميون) تمام الانطباق . حقاً لقد صدقت أقوال الأقدمين ، بل إن الأمر لأكبر من هذا خطورة ، فـ (هرميون) تتمثل فيها أخطاء جنسها،وتتجمع فيها ضروب القوة على الغدر والخداع ، وليس هناك ـ بعد هذا كله ـ من شك فى إجرام زوجه وصديقه ، وكذلك صفيـه (كاميليو) الذى يدافع عنهما مع علمه بالدسيسة ؛ أجل ، إن (كاميليو) يعلم بكل ما يدبرانه له،ولكنه لا يريد أن يظلمه ويأخذه بالشك ، فليترك له فرصة يبرهن له فيها على إخلاصه بقتله لعـدوه (بولكسين) ، ولئن لم يفعل فلا بد من قتلهم ثلاثتهم .

وهنا تنقلب الحال النفسية من تردد وحيرة إلى عزم ويقين ، وتختفى صور هؤلاء الناس وتحل محلها صورة ذاته ماثلة أمام عقله ، يراها مجروحة العزة ، مثلومة الكرامة ، تطلب الثأر للشرف والوطن ، ولا ترضى بغير القوة الغشوم بديلا ؛ أما ذات (هرميون) الدنيئة الوضيعة التى كانت تتصل بذاته الشريفة العظيمـة ، فيجب أن تستبعد ، وأن تقطع ما بينهما من صلة ، ويخلع هذا الخاطر الغريب على (هرميون) صفة جديدة يراها بها (ليئتيس) صفة الخائنـة للوطن ، لأن كرامة الوطن ممثلة فى شخصه ، وهى كرامة الملك .

وتذوب أمام هذه الصفة الجديدة كل آثار الحنو والعطف والاحترام ، فيجرؤ عليهـا ويتهمها فى وجهها ـ بعد أن كان يحترمها ـ وأمام الناس ، بعـد أن كان يتحرج من إظهار الشك لهم ـ وهى لا تستحق منه حباً ولا رعاية ـ ؛ فهو بذلك يلقى بها إلى السجن كما يفعـل بسائر المجرمين الذين لا يعرفهم ، ولا يمتون إليه بصلة ؛ فيصرخ : هل يعوزنى الدليل على

هذا ؟ أليس فى هرب (بولكسين) و (كاميليو) ما يكفينى وزيادة ؟ أجل ، إنهم جميعا يتآمرون على حياتى .

وقد يتساءل البعض هنا : لماذا يرجع (ليتيس) كل شىء إلى المؤامرة على حياته؟وجوابنا عن هذا : انه الآن فى حال نفسية أحدثتها كل هذه الظروف متجمعة ، فهو لا يستطيع أن يفكر فى شىء غير ذاته هو ، منفصلة عن ذات (هرميون) ، فيقول لنفسه : نعم ، أنا حجر العثرة فى سبيل اتصالهما ، ولولاى لعاشا معاً هانئين ، وهل تتم سعادتهما بغير القضاء علىّ ؟ أجل ! أجل ! فلا بد من الدفاع عن النفس ، وأن آخذ الحيطة ، فأقتلهما قبل أن يقتلانى ، ولا غبار علىّ إن فعلت ، أليس من واجبى أن أغسل بدمائهما ما لحق الوطن والشرف الملكى من عار ؟

وفى الحق أنه لمن المؤلم أن تجرح عزة النفس ، وتهان الذات ، ويزيد فى الألم والمرارة أن يكون المسبب لهذا كله ذاتاً كانت مندمجة فى الذات الأصلية .

وهنا يتناول الموضوع ناحية أخرى،وتظهر نزعةجديدة،هى نزعة التحقير للذات الدنيئة التى دنست ذاته هو بما ألحقته بها من عار ـ تلك هى ذات (هرميون) الوضيعة ـ ، فمن العدل أن يهينها ويحتقرها أمام أهل البلاط ـ رجالا ونساء ـ من الذين كانوا يحترمون هذه الذات ، ليروا بأنفسهم إلى أية درجة انحطت؛وبهذه الخطوة تصل عاطفة الكراهية عند (ليتيس)إلى حدها الأقصى ، وينفد صبره ، فيطلب محاكمة (هرميون) علناً أمام الناس ؛ وبينما هو يهم بتنفيذ هذا الأمر ، إذ بالرسل يعودون بجواب العرافين الذين استشاروا الآلهة فى شأن (هرميون) ، فقضوا ببراءتها وشاطر من اتهمهم الملك معها ؛ يسمع الملك هذا فتأخذه ثورة الغضب ، ويصيح بأعلى صوته : العرافون يقولون ويكذبون على الآلهة ، لقد اشترتهم (هرميون) بالمال ، فلنضرب بأقوالهم عرض الحائط،ولنستمر فى المحاكمة،وليحكم على المدنسين بالقتل جزاء ما جنت أيديهم ؛ وهنا تدفعه الحال النفسية الشاذة إلى التغاضى عن معنى العدالة، فيأمر بالقتل ، بينما يدعى محاكمتها أمام هيئة القضاء العادل .

ونلاحظ هنا : أن عاطفة الكراهية تبلغ حدها الأقصى ـ حتماً ـ عند الشعور بانفصال الذاتين تماماً ، فيعمل الكاره على مقتضى عقيدته ، على اعتبار أن كل ما يتصوره هو حق ، وما يقوله الناس باطل ، وأن شعوره لا يكذب ؛ بل إنه ينبئه بالخبر اليقين ، ويشتد الصراع فى نفسه ، ويزداد الألم ، فلا يستقر الإنسان ولا يهدأ إلا بالقضاء على من يكرهه ، وكثيراً ما يعتبر المنتقم انتقامه فعلا مشروعاً ، وواجباً أخلاقياً ، ولا يداخله شىء من الشك فى صحة ما وصل إليه عقله ؛ أليس هو الذات النقية الطاهرة ؟ فكيف يخطىء فى الحكم ؟ وكيف

يخدعه شعوره الصادق المنزه عن النقائص ؟

وتبدأ المحاكمة والملك على أشد ما يكون اضطراباً وخضوعاً لعواطفه الثائرة وانفعالاته الجامحة ، ويرى الملكة تساق إلى المحاكمة فلا يحرك منظرها عامل الشفقة فى نفسه ، بل إن هذا لا يريحه ، ولا يشبع رغبته فى الانتقام ؛ ولكن يحدث شيء لم يكن فى الحسبان ، يدفع بتيار عواطفه المتأججة فى مجرى آخر ؛ ذلك أن ولى عهده يقضى أسى على أمه وما نالها من هوان ، ويصل الخبر إليهما وهما فى المحاكمة ، فيغمى على الأم ، حتى يحسبها الناس قد ماتت ، وينفذ إلى بصيرته شعاع من الشك فى أن الآلهة غضبى عليه وعلى تصرفه ، فيسائل نفسه : ألا يمكن أن أكون ظالماً ، و (هرميون) بريئة ؟ من يدرى ؟ هنا يسود الموقف شعور جديد ، وتظهر النزعة الدينية والخوف من لعنة الآلهة وغضبهم ، فيأمر أن تعامل (هرميون) بالحسنى ، وأن يستدعى لها الأطباء ؛ ولا نخال شعور العطف على (هرميون) قد انبعث فى نفسه من مكمنه ، وأن قلبه قد رق لها ، وأن حبها قد عاد إليه من جديد ، وإنما الذى لطف من حدة تصرفه إزاءها هو خوفه على نفسه من غضب الآلهة وغريزة حب الذات . ونحن عند الشدائد والملمات نجد شيئين خطيرين :

أولا — انفعال الخوف المتولد من الشعور بوقوع الذات فى خطر .

ثانياً — ثم ظهور النزعة الدينية فى التقرب إلى الإله المعبود ، أو أية قوة أخرى يدين الإنسان بها استجداءً لمساعدتها ، واتقاءً لغضبها .

وكذلك نستخلص من كل هذا : أن النزعات النفسية ، والقوى العقلية والبدنية ، تتحد جميعها لتخدم العاطفة وتحقق أغراضها ، وتتولد فى النفس رغبة ملحة ، وشعور بالقلق لا يهدأ بغير إخضاع من تتجه إليه العاطفة أو القضاء عليها .

ففى عاطفة الحب لا تهدأ الرغبات — التى تتولد فى نفس المحب ، وتصبح أساساً قوياً للعاطفة — بغير إخضاع المحبوب ، من طريق إرضائه ، والحصول عليه ، والامتزاج به ، حتى يصير جزءاً لا يتجزأ من الذات الأصلية ؛ أما فى عاطفة الكراهية فإخضاع من تتجه نحوه العاطفة يكون بالقضاء عليه وطرده وإبعاده وفصله من الذات .

وقد خطر فى ذهنى — وأنا أضع نقط هذا الموضوع — أن مركز المرأة فى المجتمع يجعلها ضعيفة من حيث هى قوية ، فأقل شيء يخدش ناموسها ، وأضعف ظل يقع على كرامتها — وإن لم يصل إلى مرتبة الجريمة — يلصق بها العار طول حياتها ، وليت الأمر يقتصر عليها ، بل قد يتعداه إلى بناتها وحفيداتها ، فيحوطهن الرجل بجو من الشك والمراقبة ، كأنهن سيرثن — ولا محالة — تلك النقيصة عن أمهن ؛ أما الرجل فهو يسرح ويمرح ، يفعل

كل ما يبدو له من غير أن تناله ألسنة الناس بسوء ، وإن نالته ، فأولاده فى مأمن ؛ ولقد قصد (شكسبير) أن ينبه الناس ـ وبخاصة النساء ـ إلى شدة حرج مركز المرأة فى المجتمعات الخاصة والعامة ، حيث يختلط الأهل والأصدقاء والمعارف ـ رجالا ونساء ـ ، فلا يعرف الرجل مبلغ ما تبذله المرأة من تفكير وجهد ، بحيث لا يكون فى كلامها للناس وتلطفها بهم ـ بما يقضى به الأدب والواجب ـ شىء ما يسىء الزوج تفسيره ، وهو كثيراً ما يفعل ، فيسىء فهم ابتسامة تحيى بها الزوجة صديقاً له ، أو كلمة رقيقة تتحدث بها إلى أحد معارفه ، وقد يحقد عليها إن أكرمت شخصاً وتفضلت على آخر ؛ على أنها فى كل هذا ليس لها من رغبة خاصة سوى إرضاء زوجها بإرضاء أصدقائه ؛ ولعل أسعد النساء حياة ، وأبعدهن نظراً ، وأهدأهن بالا ، هى التى تحرص على تجنب المواقف التى قد تلقى فى نفس الزوج ـ ولو ـ ظلا ضئيلا من الشك مهما كانت هذه المواقف بريئة ، فإن فعل الرجل هذا بدوره ؛ وقدر شعورها كما تقدر هى شعوره ، وجدا من الراحة والهناء فى البيت ما يخفف عنهما أعباء الحياة ومتاعبها .

هذه هى آراء (شكسبير) فى العاطفة وظروفها ، نفهمها نحن كذلك تحت ضوء العلم الحديث ، ونراها متفقة مع آراء كبار علماء النفس المحدثين ، ومنها نرى كيف يسبق الأديب المطبوع ـ بدقة ملاحظته وفنه ـ قواعد العلم الحديثة بمئات السنين . ؟

نظلة الحكيم سعيد

اطبعوا مطبوعاتكم

فى

مطبعة المعرفة

فهى مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بغاية الدقة والإتقان

الادارة : رقم ٤ شارع عبد العزيز بالقاهرة